# من هنا وهناك

## كلمة عن آدم بيد وقطعة مختارة منها

جورج إليوت هو اسم القلم الذى أطلقته مارى آن إيفانس على نفسها . وقد ولدت الكاتبة فى أكسبورى عام ١٨١٩ وعاشت فى تلك الناحية ثلاثين عاماً .

ويقول هربرت سبنسر — فى سذاجة العلماء — إنه فكر فى الزواج من جورج إليوت ، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه يرى أن المرأة يجب أن تكون على شئ من الملاحة والوسامة .

واتصلت حياتها بحياة فيلسوف آخر من أصحاب المزاج البوهيمى ، هو جورج هنرى لويس ، وعاشت معه إلى أن مات . ثم تزوجت بعد ذلك رجلا آخر .

وقد تكون قصة « آدم بيد » أو إن شئت فقل قصة هيتى سوريل أحسن ما خطه يراعها . وهى قصة تمت إلى الواقع فى بعض أجزائها . وهى تذكر القارئ بقصة مرجريت فى رواية « فاوست » وهى فتاة ساذجة خلبت لبها المظاهر وخدعتها ، فأودت بها وأسلمتها إلى اليأس و إلى العيش المرير و إلى العذاب .

و إن آدم ذلك الرجل الشريف الصعب المقادة ، والفنان الجليل الخطر ، قد اتخذ هيتى بنت أخت المزارع بويزر ، صديقة له وخليلة . ولكنهما تقاطعا وتدابرا عند ما مالت إلى الكابتن آرثر دونتهورن ومال إليها . وكان هذا شاباً حسن الصورة لطيف الخلق وسيم القسمات .

وفى رواية « آدم بيد » أشخاص غير هؤلاء يقومون بأدوار مهمة . والرواية ملاى بالتيارات المتعارضة ، ومشا كل الحياة المعقدة . وكذلك هى ملأى بومضات من الفكاهة مما يجعل هذه الرواية أثراً أدبياً له جلاله وله خطره .

و إليك الصورة التى رسمتها الكاتبة للعالم الذى كانت تعيش فيه هيتى سوريل :

لقد اعتادت هيتى التوهم أن الناس يحبون النظر إليها ، وهى لم تكن غافلة عن أن لوك برينون قد جاء من بلده إلى بلدها ودخل الكنيسة فى أصيل يوم الأحد على أمل أن يراها ،

وأنه قد كان من الممكن أن يفسح المجال لآماله فى حبها لو لم يصده خالها . ولو لم يوص هذا الخال امرأته بألا تبدى له أى لون من ألوان المجاملة .

وكانت هيتى تعلم كذلك أن مستر كريج الجنائنى كان مدلها فى حبها ، وقد أقام الدليل الذى لا ينقض على حبه بما كان يرسله من هدايا التوت المفرط فى الحلاوة .

وكانت هيتى تعلم أكثر من ذلك أن خالها كان يسره أن يرى آدم بيد كل ليلة ، وكان يقول عنه : إن آدم على علم بطبيعة الأشياء أكثر من أولئك الذين يظنون أنهم أكثر منه دراية ومعرفة .

وكانت هى تعرف أن آدم هذا الذى كان دائماً مقطب الوجه والذى لم يكن يعرف كيف يجرى وراء الفتيات يخفق قلبه لو أنها نظرت إليه أو كلمته .

وكانت تعرف أن آدم هذا قد يكون شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى أهل الضاحية من الفلاحين .

وكانت تعلم علم اليقين أن عمها يريد أن يشجع آدم وأنه يسره أن تتزوجه .

وفى تلك السنين لم تكن هناك حدود بينة المعالم تقوم بين الفلاح والمزارع وبين الفنان . وهناك فى المنزل بجوار الموقد كانا يلتقيان ، كما كانا يلتقيان فى الحانة حيث كانا يراهما الراءون يشربان كوباً من البيرة معاً .

ولم يكن مارتن بويزر من رواد الحانات ، وكان يفضل أن ينعم بالحديث مع صاحب من أصحابه وهما يشربان كوباً من البيرة المصنوعة فى البيت .

وكان من دواعى سروره أن يفسر القانون لجار جاهل لا يعرف كيف يدير أمر غيطه . وكذلك كان من دواعى غبطته أن يتعلم شيئاً من رجل ذكى كآدم بيد .

ولذلك ظل آدم بيد ثلاث سنوات يلقى كل ترحيب بين أفراد أسرة مارتن بويزر ، وبخاصة فى ليالى الشتاء حيث كانت تجتمع الأسرة كلها : السيد والسيدة والأطفال والخدم فى غرفة المطبخ الواسعة الأرجاء وهم من النار المتقدة على أبعاد متناسقة .

وقد اعتادت هيتى فى السنتين الأخيرتين على الأقل أن تسمع خالها يقول :

قد يكون آدم بيد يعمل الآن من أجل الأجر ، ولكنه سوف يكون سيداً وجيهاً يوماً ما . وإنى على ثقة من هذا الأمر كثقتى بأنى جالس على هذا الكرسى الآن . ثم أضاف إلى ذلك قوله :

إن مستر برج لعلى صواب فى رغبته مشاركته وفى ترويجه بنته إذا صح ما يقولون ؛ فانه صفقة رابحة لمن تتزوجه . وكافت امرأته تقول كلما سمعت هذا القول : آمين . . .

ولقد كان من المحتمل أن تنظر هى وزوجها إلى هذه المسألة نظرة تختلف عن هذه النظرة لو كانت هيتى بنتهما ، ولكنهما كانا يرحبان بتزويج آدم من بنت أخت لها لا تملك درهماً .

ومن كانت تكون تلك الفتاة فى مكان آخر غير خادمة، لولا أن اجتباها خالها ورباها لتكون لخالتها عوناً فى خدمة المنزل .

ولكن آدم بيد لم يلق يوماً من الفتاة هيتى شيئاً من التشجيع ، بل لم تكن تفكر فى أن تقبله زوجاً ، حتى فى الساعات التى كانت فيها تحس بتفوقه على الآخرين المعجبين بها .

وكان يلذ لها أن تحس أن هذا الرجل القوى الماهر فى صناعته هو طوع بنانها ، وأنه سوف يكون موضع سخطها لو أبدى أى ميل للتخلص من سطوة طغيانها ، ذلك الطغيان الذى يبعثه الدلال . وكذلك لو أبدى ميله لأن يصل حبله بحبال مارى برج اللطيفة الظريفة التى كانت تتمنى نظرة عجلى منه فتقابلها بموفور الثناء .

ولكن أن تتزوج هيتى آدم فهذا شئ مختلف جداً . . . ولم يكن فى الدنيا يغريها أن تفعل ذلك ، ولم تكن تحس إذا رأته بما يحس به المحبون من حمرة فى الخد وخفقة فى القلب وآهة فى الصدر .

ولكنها كانت تحس بالنصر البارد لمعرفتها أنه يحبها ، وأنه لا يعنى بأن يلقى نظرة على مارى برج .

وهو لم يكن يثير فيها النشوة الحلوة للحب فى عنفوانه أكثر مما تستطيع الشمس أن تثيره من حركة فى العصارة المائية التى تجرى فى ألياف النبات .

وكانت تنظر إليه نظرتها إلى رجل فقير يعول أهله الفقراء الذين لا يستطيعون حتى فى زمن بعيد مقبل أن يجعلوها فى رغد من العيش كذلك الرغد الذى تلقاه فى بيت خالها ؛ فقد كان رغد العيش مادة أحلامها فى الليل والنهار .

وكانت تقول فى مناجاتها : لو كان آدم غنياً لأحببته ثم لتزوجته .

ثم مضت بضعة أسابيع وإذا بطائف جديد يطوف بخاطر هيتى ، طائف غامض ، طائف فى الأفق ، قد اتخذ لنفسه صورة الأمل المرجو وكان له فى نفسها تأثير المخدر ، وقد جعلها

تمشى على الأرض وتغدو إلى عملها وتروح ، وهى فى شبه حلم روحى لا يعرف وزن المادة ، وهو يضفى على الأشياء كلها تقاباً سائلا شفافاً وكأنها كانت تعيش فى دنيا المادة التى قوامها القرميد والحجر .

وقد علمت هيتى أن مستر آرثر دونتهورن يتجشم كل مشقة ويركب كل صعب فى سبيل رؤيتها ، وأنه يغدو إلى الكنيسة ليراها وهى جالسة وليراها وهى واقفة ، وأنه كان يفترص الفرص للقائها وسماع حديثها .

وكان لا يخطر ببالها أن ذلك السيد ذا الجاه والثروة والشباب يمكن أن يكون يوماً ما محباً لها مدلهاً فى حبها . مثلها فى ذلك مثل تلك الفتاة الجميلة ابنة الخباز التى ابتسم لها إمبراطور شاب ابتسامة الاعجاب ، فلم تصدق أنها سوف تصبح إمبراطورة . فذهبت ابنة الخباز إلى بيتها وهى تحلم بالامبراطور الجميل الشاب ، وربما طفقت وزن الدقيق من فرط الذهول .

وكذلك مرت بهيتى ثلاثة أسابيع على الأقل لا يشغل عقلها شاغل غير ذكريات من كلمات آرثر ونظراته . وكان صدى كلماته يتردد فى مسامعها ، وحلته الجميلة تتراءى لعينيها ، ورائحة الطيب تملأ الجو حولها .

وإلى يومنا هذا لم يكن أشهى لديها من ترقب عودة الكابتن دونتهورن أو ترقب يوم الأحد التالى لكى تستمتع برؤيته فى الكنيسة . ولكنها اليوم تفكر فى احتمال مجيئه إلى الصيد غداً ، وفى احتمال تحدثه إليها وسيره إلى جانبها وقد غاب الرقيب . وهو ما لم يكن قد حدث إلى تلك الساعة .

ولكنها اليوم أيضاً لا يتعقب خيالها الماضى بل يفكر فيما يحدث غداً ، وفى أى مكان سوف تلقاه ، وفى أى مكان من شعرها سوف تضع الشريط الوردى الجديد الذى لم تشتره بعد . وما الذى سوف يقوله لها ليجعلها تجاوب نظرته إليها بنظرة منها إليه . تلك النظرة التى سوف تستمتع بها بقية النهار . . .

وبينما كانت يدا هيتى تعملان فى لف الزبد فى الورق ، وبينما كان رأسها تملأه صور الغد المأمول ، كانت تداعب خيال دونتهورن آمال مرجوة غير واضحة ، آمال كامنة فى عقله . وقد صحا من غفوة خياله على صوت صاحبه مستر أورين وهو يسأله :

— ما الذى بتنك وأعجبك يا آرثر فى مصنع ألبان مستر بويزر ؟ أأصبحت تهوى المكان الرطب وتحب صحاف القشدة ؟

وكان آرثر يعرف أورين ، ويعرف أن المراوغة لا تجدى معه . ولذلك قال فى صراحته المعهودة :

— إنما ذهبت لأرى صانعة الزيد الجميلة هيتى سوريل وهى التى تشبه عندى إلهة الشباب فى الأساطير القديمة ولو كنت فناناً لصورتها . وإنه ليثير العجب أن يرى المرء ذلك الجمال الفاتن بين البنات الريفيات ، وآباؤهن هم أولئك المهرجون .

فقال له وارورين : لا اعتراض لى على أن تفكر فى هيتى على ضوء الفن . ولكنى لا أود أن توقد جذوة الغرور عندها ، وأن تملأ رأسها الصغير بالقول الذى يوهمها بأنها آية من آيات الجمال . يفتتن بها الشباب المترفون . إنك إن فعلت أتلفت فيها الزوجة المقبلة لرجل فقير ، كالرجل الطيب كريج مثلا الذى رأيته ينظر إليها نظرة الاعجاب .

ويبدو أن تلك البنية الصغيرة قد ملأها الغرور ، وأن زوجها سوف يكون تعساً شقياً وفقاً للقانون الطبيعى الذى يجعل الرجل الفقير — إذا تزوج الحسناء الجميلة — يتلظى فى لهب السعير .

وعلى ذكر الزواج أرجو أن يكون قد تم لصاحبنا كل شئ . فقد مات الرجل الهرم ولم يبق لصاحبنا من يعوله غير أمه . وإنى لأظن أن حبل الود متواصل بينه وبين تلك الفتاة اللطيفة المتواضعة مارى برج وقد عرفت ذلك من فلتات الحديث الذى دار بينى وبين الهرم يوناثان . ولكنى لما ذكرت القصة لآدم بدا عليه القلق وغير مجرى الحديث . وفى ظنى أن الود بينهما لا يجرى مجرى سهلا ، أو أن آدم يؤجل الأمر حتى يصبح فى رغد من العيش ، وهو رجل مستقل الرأى عظيم الكبرياء .

وسوف يكون هذا الزواج زواجاً طيب الثمر . وسوف تتوثق الصلة بين آدم وبين الهرم برج . وإنى لأود أن أرى آدم عظيم المكانة بيننا . وسأشد به أزرى وأشركه فى أمرى . وعندئذ سوف يمتد أفق آمالنا فى التعمير والاصلاح . وإنى لم أر الفتاة من قبل ، أو على الأقل لم أنظر إليها .

فقال له محدثه : أنظر إليها يوم الأحد المقبل فى الكنيسة . إنها تجلس عن شمال المنبر . إنك إن نظرت إليها فلن تجد بك حاجة إلى النظر إلى هيتى سوريل . وإن المرء إذا عقد العزم على ألا يشترى كلباً من الكلاب الجميلة فانه يغض الطرف عنه . ذلك لأننا لو نظر كلانا إلى صاحبه نظرة ود ، إذن

لفعلت النظرات فعلها وأحدثت أثرها ، و إذن لاشتد العراك بين علم الحساب وبين الميل والهوى . و إنى لأفاخر يا آرثر بحكمتى التى كسبتنى إياها السنون ، و إنى لأضفى عليك ثوباً من هذه الحكمة .

فقال له آرثر : أشكر لك هذا الصنيع . وسأشد بهذه الحكمة يوماً ما أزرى ، ولو أنى لا أرى بى حاجة إليها الآن .

وبعد — فلنرجع إلى آدم بيد . فقد كان موت والده غرقاً نكبة عليه . و إذ هو مستغرق فى حزنه ، أيقظ حاسة الفضول عنده وقع أقدام خفيفة تتخذ طريقها إلى البيت . ورأى بعين خياله وجهاً تزينه النونات وتجمله عينان دعجاوان ، وثغراً يفتر عن ابتسامات خبيثة ما كرة .

ولكن ما مر بباله لم يكن سوى فكرة خاطئة . فلم تكن هيتى التى جاءت لتعزية أهله ، ولكنها دينا تلك الواعظة الصغيرة التى يحبها أخوه Seth ولأول مرة أصبح آدم مشغولا بها معنياً بأمرها . وقال لأخيه : لست أعجب من حبك إياها فانها قد أوتيت وجهاً جميلا هو بزهرة الزنبق أشبه .

ثم يمر الزمن وإذا بآرثر دونتهورن يغازل هيتى سوريل . ثم يسيران بين أشجار الغابة . فوقعت عينا آدم على شبحين يخطوان أمامه ، فوقف جامداً فى مكانه كالتمثال وامتقع لونه . وكان الشبحان يقفان ووجهاهما متقابلان وأيديهما متشابكة وكل منهما يهم بتقبيل صاحبه . ثم افترقا بغتة وجرى أحدهما وسار الآخر متلكئاً إلى ناحية آدم الذى عرف الآن كل شئ . وعرف كل السر فى جفاء هيتى و برودها .

وفى ثورة من ثورات الهوى الذى يعمى ويصم سب آدم خصمه ومزاحمه دونتهورن وأغلظ له فى القول . ثم تعاركا عراكا وحشياً كأنهما نمران . وخر دونتهورن مغشياً عليه بين الحشائش وكأنه فقد الحياة . ولكنه لم يمت فان القدر يخبئ له فى مستقبل أيامه مصيبة أخرى . فلما أفاق كتب رسالة إلى هيتى يودعها فيها ثم ارتحل .

ثم أصبح آدم شريكا لمستر برج فى عمل من الأعمال ، وخطب هيتى لنفسه . فلم تنطق هيتى بكلمة . ولكن آدم قرب وجهه من وجهها ووضعت هى خدها لصق خده كأنها قطيطة تريد أن تدلل ، وكأنها تريد أن تحس أن آرثر كان معها مرة أخرى .

وتملك هيتى رعب شديد فسارت مرتحلة تريد فى ظاهر الأمر زيارة دينا ، ولكنها اختفت . وفيما يلى وصف ل

تتابع من حوادث مبتدئة بالحديث الذى دار بين آدم وبين إروين :

«أنت تريد التحدث إلى يا آدم .»

قال إروين ذلك القول فى صوت هادئ هدوءاً مقتسراً ، وكأنما لجأ إلى هذا الهدوء المقتسر ليكبت ما فى نفسه من ثورة وهياج . ثم قال له : «إجلس» وأشار إلى كرسى أمامه ، فجلس آدم وقد أضاف البرود الذى لقيه من إروين صعوبة جديدة تمنعه من الافاضة بمكنون صدره . ولكن آدم وقد أجمع أمره على الافضاء بسره ، لم يكن بالرجل الذى ينكص على عقبيه إلا لأسباب قاهرة .

وقد بدأ حديثه مع إروين بقوله :

إنى ألجأ إليك يا سيدى كرجل نبيل هو عندى فوق الناس كلهم . وإنى لمنبئك بأشياء تحز فى نفسى . أشياء قد يؤلمك سماعها كما يؤلمنى ذكرها . وإذا رأيتنى يا سيدى أتكلم عن مساوئ الناس وأخطائهم فاعلم أن الدافع لذلك دافع قوى .

فهز مستر إروين رأسه متمهلا . واستمر آدم فى حديثه وهو يرتجف قائلا : لقد كان موعد زواجى بهيتى سوريل يا سيدى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر . وكنت أظنها تحبنى ، وكنت بذلك الظن أسعد مخلوق .

ولكن ضربة قاصمة قد نزلت بى ، ومصيبة كبرى قد ألمت بساحتى .

ولكن هيتى قد ذهبت ولست أدرى أين استقر بها النوى . فقد قالت إنها ذاهبة إلى سنوفيلد يوم الجمعة . ومضى على يوم الجمعة هذا أسبوعان . وقد ذهبت يوم الأحد الماضى لأعود بها ، ولكنها لم تكن هناك . وقيل لى إنها استقلت عربة إلى ستونيتون وبعد ذلك لم أعرف أين ذهبت . ولكنى اعتزمت اليوم سفراً طويلا لأبحث عنها . ولن أستطيع أن أقضى بهذا السر إلى أحد سواك .

فقال له مستر إروين : وهل تعرف سبب هروبها ؟

— يبدو أنها كانت لا ترغب فى الزواج منى . وقد هربت عندما اقترب الموعد . ولكنى أشك فى أن هناك شخصاً ثالثاً قد بدا فى الأفق .

فبدا السرور على وجه مستر إروين فى تلك اللحظة وكأنما أزيح عن صدره هم ثقيل .

ثم استأنف آدم حديثه قائلا : أنت تعرف يا سيدى ذلك الرجل الذى حسبته أصدق صديق لى ، والذى كنت أفخر بأنى سوف أقضى حياتى أعمل لأجله وكانت هذه أمنيتى منذ كنا صبيين ... وعندئذ أمسك مستر إروين بذراع

آدم ، وكأنما فارقه وقاره وشد عليها وقال فى صوت متهدج : أرجو ألا تقول هذا . . .

فذهل آدم لما انتاب مستر إروين من انفعال وندم على قوله وجلس وقد تولاه صمت من أصابته مصيبة .

ثم ارتمى مستر إروين فى كرسيه وقال لآدم : قل كل شئ فلا بد لى أن أعرف كل شئ .

فقال آدم : إن ذلك الرجل قد حلب لب الفتاة وسلك نحوها سلوكا لا حق له فى سلوكه مع فتاة فى مثل مركزها فى الحياة ، وأهدى إليها الهدايا واعتاد أن يذهب لملاقاتها فيسيرا جنباً إلى جنب . ورأيتهما معاً قبل هروبها بيومين وهو يقبلها قبل أن يغادرا مكانهما فى الغابة . ولم يدر حديث بينى وبين هيتى يومذاك ، ولو أنى كنت أحبها منذ زمن وكانت هى تعرف ذلك . وقد عنفته وزجرته على أخطائه ثم تبادلنا الشتائم والكلمات ، ولكنه قال لى بعد ذلك فى خشوع الرجل التقى إن الأمر بينهما لم يكن إلا عبثاً ، ولم يخرج عن حد الغزل . ولكننى جعلته يكتب خطاباً ينبئ فيه هيتى أنه لم يكن يعنى شيئاً ، ذلك لأنى رأيت جملة أمور ما كنت أستطيع يومئذ أن أفهمها . فقد ملك قلبها حتى لقد أصبحت به مغرمة ، وحتى لقد أصبحت عن حب من يرغب فى زواجها معرضة . ثم أعطيتها الخطاب فتظاهرت بقبوله كما كنت أتوقع . ثم حنت على حنواً كان يزداد ساعة بعد ساعة . ولعل المسكينة لم تكن تعرف حقيقة أمرها ساعتئذ . ولكنى لا ألومها ؛ ذلك لأنى لا أستطيع أن أظن أنها قد أرادت خداعى وغشى . وكان عندى ما يشجعنى على الظن أنها تحبنى . وأنت تعرف الباقى يا سيدى . ولكن لا يبرح من ذهنى أنه كان كاذباً معى وأنه أغراها بالهرب ، وأنها ذهبت لتلحق به وإنى ذاهب الآن لأرى . ذلك لأنى لن أستطيع أن أعود إلى عملى قبل أن أعرف مصير تلك الفتاة .

وبينما آدم يقص قصته كان مستر إروين قد استعاد رباطة جأشه على الرغم من الأفكار القلقة التى طافت به يزدحم بعضها بعضاً . وكانت ذكرى مرة الطعم . إذ تذكر أن آرثر قد تناول الفطور عنده هذا الصباح ، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يفضى إليه باعتراف . والآن قد تبين لمستر إروين ما كان يريد أن يفضى به آرثر .

ثم عاد مستر إروين فألقى يده فى رفق فوق ذراع آدم التى كانت على المائدة وقال فى خشوع :

— يا صديقى العزيز آدم : لقد مرت بك مجارب قاسية فى الحياة . وإنك لقادر على أن تحتمل الحزن كما يحتمله الرجال ، وكذلك أنت قادر على أن تعمل عمل الرجال . فالله سبحانه يريدنا أن نكون كذلك . وإن هناك حزناً ثقيلا فى طريقه إليك ، وهو حزن أشد من كل ما مر بك من أحزان . ولكن الذنب ليس ذنبك . ثم اعلم أن من الناس من ترجح كفتهم فى الحزن كفتك وهؤلاء لهم الله .

ونظر كلاهما إلى صاحبه وقد استقع لونهما . وكان يخامر آدم قلق يهزه هزاً ، كما كان يخامر مستر إروين إشفاق يخالطه التردد ، ولكنه استمر فى حديثه يقول :

— لقد جاءنى هذا الصباح خبر عن هيتى فهى لم تذهب إلى صاحبك بل هى فى ستونيتون .

فنهض آدم من كرسيه وكأنه قد خيل إليه أنه يستطيع أن يطير إليها فى تلك اللحظة . ولكن مستر إروين قد أمسك بذراعه مرة أخرى وقال : انتظر يا آدم . انتظر . ثم استطرد يقول : إنها فى موقف لا تحسد عليه . ذلك الموقف الذى لو رأيتها فيه لساءت الأمور بينكما أكثر مما كانت يا صديقى المسكين ، بل لكان الأمر أسوأ مما لو كنت فقدتها إلى الأبد .

فارتجفت لذلك القول شفتا آدم . ولكنه لم ينطق بكلمة ، ثم تحركت شفتاه مرة أخرى لتهمسا بقوله : « أنبئنى » .

— إنها مقبوض عليها . إنها فى السجن . وكأن ذلك القول كان لطمة قوية أحيت فى آدم روح المقاومة وصعد الدم إلى وجهه وقال فى صوت عال : وما جريمتها ؟

— إنها جريمة كبرى . إنها قتلت طفلها . فصاح آدم : هذا مستحيل . وقام من كرسيه متوجهاً إلى الباب ثم عاد . ثم نظر إلى مستر إروين وقد بدت عليه وحشية الغضب : ذلك مستحيل . . . إنها لم ترزق طفلا قط . وهى لذلك لا يمكن أن تكون مجرمة . ومن ذا الذى يقول ذلك القول ؟

— إنى أدعو الله يا آدم أن تكون بريئة .

— ولكن من قال أنها مذنبة ؟ قل لى كل شئ .

— هذا خطاب من قاضى التحقيق الذى ينظر فى أمرها . ورجل البوليس الذى تولى القبض عليها جالس الآن فى غرفة المائدة . وهى مصرة على ألا تبوح باسمها ، وأن لا تدل على بيتها . ولكنى أخشى أن ليس هناك شك فى أنها هى هيتى . فان الوصف ينطبق

عليها ، لولا شحوب ألم بوجهها ، ولولا سقم نزل بجسمها . وقد وجدوا فى جيبها دفتراً كتب فيه اسمان : واحد فى أوله وهو هيتى سوريل من مدينة هاى سلوب واحد فى آخره وهو دينا موريس من مدينة سنوفيلد . وهى ترفض أن تقول أى الاسمين اسمها ، وهى تنكر كل شئ ، وهى لا تجيب على الأسئلة. وقد طلب إلى أن أعمل على التحقق من شخصيتها . ذلك لأنهم يرون أنه من المحتمل أن يكون الاسم الأول هو اسمها .

— ولكن أى دليل عندهم عليها لو كانت هى هيتى ؟ قال ذلك والانفعال يهز جسمه هزاً عنيفاً . لن أصدق هذا ولا يمكن أن يكون هذا قد وقع ولم يعلم به واحد منا .

— إنه دليل مزعج على أنها كانت تحاول ارتكاب الجريمة . ولكننا نرجو ونأمل أنها لم ترتكب هى تلك الجريمة وإليك هذا الخطاب فاقرأه يا آدم

فأخذ آدم الخطاب بين يديه المرتجفتين وحاول أن يثبت ناظريه فيه. وخرج مستر إروين ليأمر أمره فى بعض الأمور . ولما عاد كانت عينا آدم لا تزالان مثبتتان فى الصحيفة الأولى . وكان — لفرط ذهوله — لا يستطيع القراءة ولا يستطيع أن يفهم مدلول الكلمات ، ورمى بالخطاب إلى الأرض آخر الأمر ثم ضم قبضة يده .

ثم قال : إن هناك جريمة فهى جريمة آثر . ومفتاح الجريمة عنده ، لا عندها . فقد علمها الخيانة والغش وقد خدعنى أنا أول من خدع . فليقف معها جنباً إلى جنب عند المحاكمة . وسأخبر القوم كيف اغتصب قلبها وكيف أغراها على فعل السوء . فهل يظل هو حراً طليقاً ، وتلقى هى العقاب وحدها وهى لم تزل صغيرة مهيضة الجناح ؟

ثم قدمت هيتى إلى المحاكمة . وبعد أن صدر الحكم دوت فى قاعة الجلسة صرخة تصم الآذان وكانت الصرخة صرخة هيتى . فوقف آدم على قدميه ومد ذراعيه إلى ناحيتها . ولكن المدى كان بينهما بعيداً . ثم سقطت هى وقد انتابتها نوبة إغماء . ثم أخرجت من دار المحكمة إلى السجن انتظاراً ليوم التنفيذ . وقد أصرت هيتى إصراراً تاماً على الانكار أثناء المحاكمة وبقيت على إصرارها فى السجن . وقد خرجت عن صمتها نزولا على رجاء صاحبها دينا وقالت والندم يهز كيانها ، وقد انفرجت شفتاها وهى تبكى بكاء صادراً عن القلب: « يا إلهى إننى أجرمت » .

ثم طوقت عنقها بذراعيها وقالت :

سأتكلم . سأنبئك بكل شئ . ولن أخفى شيئاً .

ولكن العبرات كانت تخنقها . فحملتها دينا فى رفق وأجلستها على الحصير مرة أخرى وجلست إلى جانبها ، وتماسكتا باليدين . وأخيراً همست هيتى قائلة :

— لقد ارتكبت الجريمة يا دينا . ولقد دفنته فى الغابة . . . وأعنى به الطفل الصغير . . . وقد بكى . . . وقد سمعته يبكى طول الليل . . . ورجعت أدراجى لأنه كان يبكى .

ثم توقفت . ثم عادت إلى الكلام فى صوت عال ، وفى لهجة فيها معنى التوسل . وقالت :

— وظننت أنه لن يموت . فقد يلتقطه بعض الناس . ولم أقتله أنا . . لم أقتله بيدى . . . إنما ألقيته على الأرض . وجعلت فوقه غطاء . ولما عدت لم أجده . . . وكان ذلك لأنى جد تعيسة يا دينا . ولم أعرف أنا إلى أين أسير . . . ولقد حاولت قتل نفسى فلم أستطع ثم حاولت الموت غرقاً فلم أقدر . . . فذهبت إلى وندسور ثم هربت كما تعلمين . وقد ذهبت أفتش عنه لكى يعنى بأمرى ، ولكنه كان قد رحل . . . وعندئذ ضاقت بى السبل ولم أجرؤ على أن أعود إلى البيت ، ولم تكن بى قدرة على أن أنظر لأى مخلوق مخافة تحقيرى و إذلالى .

ثم توقفت مرة ثانية كأنما الاحساس بالماضى كان أقوى مما تحتمله الكلمات ثم عادت إلى حديثها فقالت :

— ثم توجهت إلى ستونيتون وبدأت أحس بالرعب يدب فى قلبى تلك الليلة ؛ لأنى كنت قد اقتربت من البيت . ثم ولد الطفل الصغير فى وقت كنت لا أتوقع فيه ميلاده . . . ففكرت فى التخلص منه ، وفى العودة إلى البيت . وقد خطرت لى الفكرة بغتة وأنا مستلقية فى الفراش ، ثم بدأت الفكرة تقوى وتشتد . . . واشتقت أن أعود مرة أخرى . . . ذلك لأنى كنت لا أحتمل العزلة . ثم ألفيت فى نفسى القوة وصحة العزم والمقدرة على أن أرتدى ملابسى ، وأحسست أن ذلك واجب مفروض على . . . وتمنيت أن أجد بركة ماء فى ركن من أركان المزرعة . ثم فكرت فى الخلاص من أسباب البلاء وفى العودة إلى البيت . على ألا أحيطهم خبراً بأسباب هروبى . « خرجت مع البازى على سواه » والطفل تحت كسائى . وأسرعت الخطى حتى أبعدت . فلقيت جمعاً من الناس ثم أعطيت شيئاً ساخناً لأشربه ثم كسرة من خبز . . . ثم غذذت

السير . وكنت أخفف الوطء ثم أضاء القمر وقد تولانى الخوف منه يا دينا ، عندما نظر إلى من خلف السحاب . ولم أعهد فى القمر تلك النظرات من قبل ثم عجت إلى الحقول . ذلك لأنى كنت أخشى أن ألقى أحداً من الناس والقمر يطل على . ثم ألقيت بنفسى على العشب اليابس أطلب الدفء وأحاول أن أنام . . .

وكانت هناك فرجة وسط العشب حيث اتخذت فراشى وحيث نمت نومة أحسست فيها بطعم الراحة . وكان الطفل فى دفء وهو بجانبى وأظننى قد نمت نوماً طويلا . ذلك لأنى لما صحوت كان الوقت صباحاً وإن يكن النور لم يعم الكون بعد . وكان الطفل يبكى . ثم رأيت غابة على مدى غير بعيد ، وظننت أن قد تكون هناك بركة ماء أو أخدود . . . وخلت أن فى الوقت فسحة ، وأننى أستطيع أن أخبئ الطفل وأن أبعد فى سيرى قبل أن يستيقظ القوم ، وأن أركب إلى البيت وأنبئهم بأنى كنت أبحث عن عمل وأن مسعاى لم ينجح . . . وكم تاقت نفسى إلى هذا يا دينا . كم تاقت نفسى إلى أن أعود إلى البيت سالمة . أما شعورى نحو الطفل فلم أكن أتبينه . فقد كان يبدو لى أنى أكرهه . وكان كأنه حمل ثقيل شد إلى عنقى . ومع ذلك فان بكاءه كان يبكينى . وما كانت بى قدرة على النظر إلى وجهه وإلى يديه الصغيرتين . ولكنى مشيت قدماً إلى الغابة وجبت أنحاءها ولكن لم أجد ماء . . . ثم ارتجفت هيتى وظلت صامتة بضع ثوان ثم استأنفت حديثها وهى تهمس همساً :

— وجئت مكاناً يكسوه العشب وقطع الأشجار ثم جلست أفكر فيما سوف أفعل . ثم لاح لى بغتة حجر تحت شجرة من شجر البندق وبدا لى هذا الحجر كأنه قبر صغير ، وخطر لى فى مثل سرعة البرق خاطر أن أقذف الطفل فى هذا الحجر وأن أغطيه بالأعشاب وقطع الأشجار . وما كنت أستطيع قتله بطريقة أخرى غير هذه الطريقة . وقد فعلت ذلك كله فى دقيقة واحدة ، وقد علا صراخه يا دينا حتى لم أستطع أن أثقل عليه الغطاء . وظننت أن قد يمر به أحد الناس فيعنى به ، وينجو من الموت . ثم أسرعت الخطى وأنا أغادر الغابة ولكنى كنت أسمع بكاءه وقتاً طويلا . ولما بلغت الحقول كنت كأننى سمرت فى مكانى فلا أستطيع حراكا . فجلست على العشب لأنظر هل يقبل أحد من الناس .

وكان الجوع قد بلغ منى . ولم يكن عندى غير كسرة من خبز ، ولكنى لم أستطع المضى . وبعد لحظة حسبتها دهوراً ، جاء الرجل ذو القباء ونظر إلى نظرة ألقت الرعب فى قلبى فذعرت وأسرعت الخطى . ولقد ظننت أن وجهته الغابة ، وأنه قد يعثر على الطفل ، ثم مضيت قدماً حتى جئت قرية على مدى بعيد من الغابة وقد اجتمع على الجوع والتعب والمرض . ولقيت هناك شيئاً آكله ثم اشتريت رغيفاً . ولكن الرعب كان يمنعنى البقاء . فقد كنت أسمع بكاء الطفل ، وكان يخيل إلى أن الناس كلهم فى جميع أقطار الأرض يسمعون بكاءه . فاستأنفت المسير ، ولكنى كنت جد متعبة . وكان الليل مقدماً ، وهناك فى ناحية من نواحى الطريق لقيت «شونة» بعيدة عن مكان البيوت . وهناك اختبأت واتخذت من القش حصيراً ، ثم رقدت ثم غلبنى النعاس ولكن بكاء الطفل كان يوقظنى . ثم صحوت وكان الصبح قد بدا ، ثم دفعتنى قدماى إلى العودة من حيث أتيت ، ولم أستطع يا دينا لهذه الرغبة دفعاً . وكان بكاء الطفل هو الدافع لى . ومع هذا فقد كان الخوف يزلزل أقدامى ، وظننت أن الرجل ذا القباء قد رآنى وأنه يعرف أنى خبأت الطفل هناك . ولكنى بالرغم من ذلك كله قد سرت فى تلك الطريق ، وتخليت عن فكرة العودة إلى البيت بل انتزعتها من مخيلتى انتزاعاً . ولم يكن أمام ناظرى إلا ذلك المكان فى الغابة حيث دفنت الطفل... وإنى لأراه إلى هذه الساعة يا دينا ... فهل سأظل أراه إلى يوم تقوم الساعة؟ ثم تعلقت هيتى بأذيال دينا ثم ساد السكوت بينهما ، وقتاً طويلا قبل أن تستأنف حديثها ، ثم قالت :

ـ لم ألق أحداً . ذلك لأن الوقت كان مبكراً ثم وصلت إلى الغابة . . . وكنت أعرف الطريق إلى المكان . . . المكان الذى يقابل شجرة البندق . وكنت أسمع بكاء الطفل فى كل خطوة . وكنت أظنه حيا . . . ولست أعرف أكان هذا الخاطر يرعبنى أم كان يبعث إلى نفسى السرور . . . ولست أعرف الشعور الذى أحسست به . وكل ما أعلمه أنى كنت فى الغابة وأنى سمعت بكاء الطفل ولم أتبين شعورى حتى رأيت أن الطفل ، قد ذهبوا به .

وإنى عندما وضعته هناك خيل إلى أنى أتمنى أن لو التقطه أحد لينقذه من الموت . ولكنى لما رأيته قد ذهبوا به طار لبى من الفزع . وقد أوهن ساعدى الخوف فلم أستطع حراكا ،

وخلت أن كل من نظر إلى يعرف شيئاً عن الطفل . ثم تحجر قلبى فبقيت فى مكانى لا أتمنى شيئاً ، ولا أحاول أمراً . وخيل إلى أنه أصبح حتما على أن أبقى هناك حتى يقضى الكتاب أجله ، وأن شيئاً من الأشياء لن يناله التبديل والتحويل . ولكنهم جاءوا وذهبوا بى . . .

ثم سكتت هيتى ثم عادت ترتجف كأن عندها للحديث بقية فى الزاوية ووقفت دينا موقف الانتظار . ذلك لأن الحزن كان قد لاع قلبها وأشرقها بدمعه ، ثم انطلقت هيتى تقول، وقد جاشت فى صدرها غصص الهموم :

— أتظنين يا دينا أنى وقد بحت بكل شئ أن الله سبحانه سوف ينسينى ذلك البكاء ، بكاء الطفل ، وذلك المكان المعهود فى الغابة . . .

ثم يزور آدم هيتى فى الساعات الأخيرة التى تسبق تنفيذ الحكم . ثم تبدأ الخطوات الأخيرة فى سبيل التنفيذ ثم يجئ صباح يوم تنفيذ الحكم بالاعدام . . .

وكان منظراً من مناظر الحزن التى يذكرها الناس أكثر مما يذكرون أحزانهم وهمومهم . ذلك المنظر الذى رآه الناس فى صباح ذلك اليوم الصافى الأديم عندما جاءت العربة تقل المرأتين فى سن الشباب . وقد شاهدها عن بعد ذلك الجمهور المترقب وهى تشق طريقها ، ووجهتها المشنقة . تلك الصورة الشنيعة البشعة للموت المفاجئ الذى يسبقه الاصرار والعمد . . .

وكل الناس فى ستونيتون قد سمعوا عن دينا موريس تلك الواعظة الشابة التى ألجأت تلك المجرمة المصرة على الانكار أن تعترف . وكل الناس كانوا فى شوق إلى أن يروها ، وأن يروا تلك الشقية هيتى .

ولكن دينا كانت عن الجمهور فى صمم . وعندما وقع نظر هيتى على الجمهور أمسكت بدينا وهى ترتجف . فقالت لها دينا : أغمضى عينيك . ولنتوجه إلى الله الغفور الرحيم بدعائنا وصلاتنا .

وفى صوت خفيض نطقت بدعائها — الذى كان كاخر سهم من سهام التوسل — لتلك المخلوقة المرتجفة . التى كانت تنظر إليها كآبة على الاشفاق والحب .

ولم تكن دينا تعرف أن الجمهور ينظر إليها فى شئ من الخشوع . بل لم تكن تعرف مدى ما بينها وبين ذلك المكان المشئوم مكان المشنقة ، حتى وقفت العربة ، وانتفضت هى فزعة مرعوبة لدى سماعها صرخة مزعجة

كأنها إحدى صرخات الشياطين .

ثم اختلط صراخ هيتى بتلك الصرخة ثم أمسكت كلتاهما بصاحبتها من فرط الذعر المشترك بينهما .

ولكنها كانت صرخة مبعثها الانفعال لا القسوة . إنها صرخة هياج مفاجئ بعثها ظهور فارس يمتطى جواداً يشق الصفوف وهو فى أقصى سرعة .

وكان راكب الجواد يتطاير الشرر من عينيه وكأنه قد جن جنونه . . . وانظر إليه . . . أنه يحمل فى يده شيئاً . . . وكان يرفع يده كأنه يشير إلى شئ . . .

وكان العمدة يعرفه — إنه آرثر دونتهورن يحمل فى يده ذلك الشئ الذى نجا من الموت بأعجوبة . . .

مبارك ابراهيم

( عن الانجليزية )